سلسلة { **يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ**}-1

العبادة "معناها، صفاتها، شروط قبولها"

أبو محمد المقدسي

مـعنى العبادة

العبادة لغةً: من الخضوع والانقياد والتذلل، يُقـال بعيـر مُعبّد أو طريق مُعبّد: أي مُذلّل سلس سهل الانقياد.

وهي شرعاً: غاية الحب مع غاية الذل وهي كما عرفهـا شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعـالى ـ: العبـادة اسـم جـامع لكـلّ مـا يُحبّـه اللـه ويرضـاه مـن الأقـوال والأعمـال الباطنة والظاهرة.

وعلى هذا فمعنى العبادة واسع وليس كمـا يظنـه كـثير من الناس فيقصرونه على السجود والركوع والصلاة فربما عبدوا غير الله بأنواع أخرى من العبـادات وهـم لا يشـعرون فيقعون بالشرك الـذي لا يغفـر اللـه لمـن مـات عليـه قـال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِـهِ وَيَغْفِـرُ مَـا دُونَ ذَلِـكَ لِمَن يَشَاءُ} [النساء:48].

لذلك وجب على من أراد النجاة من النار ودخول الجنة أن يفهم معناها وأنواعها ليوحِّدها جميعها لله تعـالى، فـذلك حقه سبحانه على العباد إن هم أدّوه كان حقاً عليه سـبحانه أن يدخلهم الجنة كما في حديث معاذ بـن جبـل رضـي اللـه عنه.

فتــأتي العبــادة بمعنـى التنَسُّــك والتــأله: كالســجود والركـوع والصـلاة، وأيضـاً الـدعاء فهـو مـن العبـادة ومنـه الاستغاثة فيما لا يقدر عليه إلا الله فذلك مـن العبـادة الـتي يجب أن لا تُصرف لغير الله، وكذلك الاستعاذة {وَأَنَّـهُ كَـانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُـمْ رَهَقـاً} [الجـن:6] . وكـذلك الذبـحَ والنـذر ونحـوه فـذلك كلـه مـن العبادة التي يجب أن لا تُصرف لغيره قال سبحانه: {قُلْ إِنَّ صَـلاَتِي وَنُسُـكِي وَمَحْيَـايَ وَمَمَـاتِي لِلَّـهِ رَبِّ العَـالَمِينَ لاَ شَـرِيكَ لَـهُ وَبِـذَلِكَ أُمِـرْتُ وَأَنَـا أَوَّلُ الْمُسْـلِمِينَ} [الأنعـام: 162-163] .

وقال تعالى: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} [الكوثر:4]. فالنحر والذبح كالصلاة يجب توحيدها لله تعالى، وقال عليه الصلاة والسلام في الدعاء: (الدعاء هو العبادة).

وتأتي العبادة ويُراد بها الطاعة والانقياد المطلق، قال تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [يس:60] . فعبادة الشيطان هنا طاعته. وكذلك قوله تعالى عن فرعون وملئه: {فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ} [المؤمنون: 47] . فالمقصود بالعبادة هنا الطاعة والإنقياد المطلق في كلّ شيءٍ، فهذه لا تجوز إلا لله وإن صُرفت إلى غير ذلك فهي على نوعين:ـ

1-طاعة في معصية الله عز وجل (بدون استحلال للمعصية): كأن يُزيّن له الشيطان الزنا فيُطيعه، أو أن يأمره سيّده بشرب الخمر فيطيعه، أو يأمره رئيسه بحلق اللحية فيُطيعه، وهو يعتقد أن ذلك حرام. فهذه الطاعة يشملها لفظ العبادة، ويُسمى فاعلها (عابداً للشيطان)، أي مُتّبعاً له، ولا يصل إلى الكفر إلا إذا استحل المعصية، وإنما هو مُحرم وقد حذّر النبي عليه الصلاة والسلام منه أشدّ التحذير فقال: (لا طاعة لمخلوق في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف) [رواه مسلم] .

2-طاعة في الحكم والتشريع أي في (التحليل والتحريم): وهذا لا يجوز صَرفه لغير الله عز وجل، فإن صُرفَ، فهو شرك أكبر، لأن الحكم والتشريع لا ينبغي إلا لله الواحد القهار قال عز وجل: {وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً} [الكهف:26] .

وقال تعالى أيضاً: {إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ} [يوسف:40]، فالحكم والتشريع من أخصِّ خصائص الألوهية، ولذا كان من معاني كلمة الإله: المُشرِّع، ومن أسماء الله الحسنى: الحَكَم والحكيم، وعلى ذلك، فإنَّ من شرَّع أو فرَضَ تشريعاً وحُكماً غير حُكم الله عز وجل فقد نَسَبَ إلى نفسه صفةً من صفات الألوهية، وكان بذلك مثل فرعون حين قال: {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص:38] .

والأدلة على أن مجرد الطاعة والإتباع لغير الله عز وجل في الحكم والتشريع تعتبر شركاً كثيرة، منها قوله تعالى: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [الأنعام:121] . فكانت

طاعة أولياء الشيطان هنا شركاً وعبادةً لغير الله عز وجل لأنها طاعة في الحكم والتشريع، أي في التحليل والتحريم الذي لا ينبغي إلا لله عز وجل.. وذلك كما روى الحاكم وغيره بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنه: أنَّ أناساً من المشركين كانوا يُجادلون المسلمين في مسألة الذبح وتحريم الميتة فيقولون: (تأكلون مما قتلتم ولا تأكلون مما قتل الله ــ يعني الميتة ــ) فقال الله تعالى: {وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} فكانت مجرد الطاعة في مثل هذه الأمور تُعتبر شركاً، يقول ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ: أي حيث عَدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قولِ غيره فقدّمتم عليه غيره فهذا هو الشرك. اهـ.

لذلك فإنَّ من أطاع العلماء أو الأمراء أو الحكام في تحريم ما أحلّ الله أو تحليل ما حرّم الله في فتاويهم، أو قوانينهم التي يحكمون بها العباد، فقد اتخذهم أرباباً من دون الله وكان بذلك مشركاً، ويدّل على ذلك أيضاً قول الله تعالى عن أهل الكتاب: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ} [التوبة:31] . واتخاذُ الأحبار والرهبان أرباباً، لا يُقصدَ به هنا السجود والركوع لهم، وإنما ذلك بطاعتهم في الحكم والتشريع والتحليل والتحريم، لأنَّ هذه الطاعة عبادة كالركوع والسجود لا تجوز إلا لله عز وجل، لذلك أنكر الله تعالى عليهم ذلك في نَتِمَّةِ الآية فقال: {وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} وقال سبحانه وتعالى أيضاً عن أمثال هؤلاء الذين يُطيعون ويَتبعون غير شريعه: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللّهُ وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}... [الشورى:21].

فاحذر ذلك جيداً ـ يرحمني الله وإياك ـ فقد هلك بسببه كثير من أهل زماننا.. [1].

صفات العبادة الصحيحة

---

[1] ويدخل في هذا الفرع أيضاً الحكام المرتدين الذين يزعمون الإسلام، ويحكمون بقوانين اليهود والنصارى، فهم مشركون أيضاً، وإنْ لم يُقنّنوا هم بأنفسهم فيحرِّموا ما أحل الله أو يُحلوا ما حرّم الله، لأن مجرد طاعتهم لليهود والنصارى في تحكيم قوانينهم (التي جلها استحلال للحرام وتحريم للحلال) بدلاً من حكم الله، يعتبر شركاً أكبر (أي عبادة لغير الله عز وجل)، فأولئك المشركون العرب كانوا يُجادلون المسلمين في حكم واحد من أحكام الإسلام وهو الذبح، فسمى الله عز وجل طاعتهم وأتباعهم لذلك الأمر شركاً، فكيف بمن اتبع اليهود والنصارى وأطاعهم بتحكيم قوانينهم وأحكامهم كلها، ونَبَذَ حُكم الله كله؟؟؟.

ينبغي للعبادة كي تكون على الوجه الذي طلبه الله منا، أن يصحبها ثلاثة أمور وهي:

1ـ الحب
2ـ الخوف
3ـ الرجاء

1ـ فنعبد الله تعالى حباً له سبحانه فقد أثنى الله على عباده بذلك فقال: {وَالذين آمنوا أشدُّ حُباً لله}.

2ـ وكذلك نعبده خوفاً منه ومن عذابه سبحانه، قال تعالى: {فلا تخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمنين} وقال عز وجل: {يَدعُون ربَّهم خَوْفاً وطَمَعاً} أي خوفاً من عذابه وطمعاً في مغفرته وجنته وثوابه.

3ـ وكذلك الرجاء: قال تعالى: {ويَرجُون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً}.

فنعبد الله تعالى حباً فيه وخوفاً من عذابه ورجاء رحمته وثوابه في وقت واحد وهذا هو حال الصالحين ودأبهم وهذه هي صفة العبادة الصحيحة التي يُريدها الله من عباده ولذلك قال بعض السلف: (مَنْ عَبدَ الله بالحب وحده فهو زنديق [2] ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري [3] ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ [4] أما صاحب السنة فيجمع بين ذلك كله).

شروط قبول العبادة

---

[2] كما يزعم بعض الصوفية أنهم أحباب الله، يعبدونه حباً فيه فقط وليس خوفاً من عقابه ولا رجاءً ورغبة في مغفرته وثوابه، فكان ذلك من أعظم أسباب ضلالهم وانحرافهم لأنهم خالفوا أمر الله عز وجل حيث أمرنا أن نعبده بالخوف والرجاء معاً، فقال: {وادعوه خوفاً وطمعاً}.
وهؤلاء الضلال ليسوا أفهم ولا أعلم من الأنبياء وعُباد الله الصالحين الذين وصفهم الله بأنهم يدعون ربهم خوفاً وطمعاً وأثنى عليهم بذلك.

[3] الحرورية: هم الخوارج نسبة إلى حروراء بلدة كان أول ظهورهم فيها..

[4] المرجئة: هم الذين يُرجِئون العمل عن الإيمان أي يأخرونه ويهملونه ولا يجعلونه شرطاً أو ركناً من أركان الإيمان، كما يقول كثير من الناس اليوم إذا دُعي للصلاة أو غيرها من الفرائض {إن الله غفورٌ رحيم} دون أن يستجيب لشيء من ذلك..

أما شروط قبول العبادة فهي:

* الإيمان
*الإخلاص
* الإتباع

ولا تُقبل عبادة عابد إلا بتوافرها كلها مجتمعة.

فالعبـادة بلا إيمـان مـردودة قـال تعـالى: {مـن عمِـلَ صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهـو مـؤمن} فجعـل الإيمـان قيـداً لذلك.

وكذلك الإخلاص: بدونه لا تُقبل العبادة، قال تعالى فـي الحديث القدسي: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمِـلَ عملاً أشرك فيه معي غيري تركتهِ وشركه). فلا يقبـل اللـه تعالى من العمل إلا ما كان خالصاً له.

وكذلك الإتبـاع: فـالله لا يقبـل مـن العبـادة إلا مـا كـان مُوافقاً لما شرعه أي صـواباً، قـال عليـه الصـلاة والسـلام: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) ـ أي مردود ـ [رواه مسلم] .

أسـأل اللـه تعـالى أن يـوفقني وإيـاك إلـى العبـادة الصحيحة وأن يتقبل أعمالنا ويحسن ختامنا.

أبو محمد عاصم المقدسي
سجن قفقفا ـ الأردن ـ ربيع الثاني 1415 هـ .

منبر التوحيد والجهاد
* * *
tth
tth
tth
tth
tth
منبر التوحيد وا